الفكر الخلدوني وموقفه من التصوف

أهداف التعليم :

التعرف على الأسس العامة لأفكار إبن خلدون

التعرف على نشأة التصوف في الفكر الإسلامي

التعرف على موقف إبن خلدون من التصوف

التعرف على علاقة الفلسفة بالتصوف

يحتل موضوع التصوّف مكانة كبيرة وأهمية قصوى في الفكر الإسلامي لكونه سلوك ومنظومة عمل ووسيلة تأخذ منحى المجاهدة تعمل على إعتبار الحياة وسيلة لا غاية فترتقي النفس وتتجاوز شهواتها ورغباتها وملذاتها . ومن ثم " فقد إختلف الحديث عنه من طائفة إلى أخرى ، ومن شخص إلى آخر، ولقد إستحوذ التصوّف على أذهان الكثير من الباحثين في الشرق والغرب على السواء فحظى بدراسات واسعة ومتنوعة في مناهجها ، وأسلوبها ، وهدفها إختلط فيها جانب المدح بجانب القدح"[1]. وعند الرّجوع إلى مسألة التصوّف عند فلاسفة المغرب نجد أن مواقفهم متعددة ولا توجد نقطة إلتقاء بينهم حوله وكان لكل فيلسوف رؤيته الخاصة به ، وموقف إبن خلدون المتعلق بالتصوّف يمكن وصفه بأنه متداخل ومتميز ومتقاطع من فلاسفة المغرب. إذن حقيقة الموقف من التصوّف هي موقف " من العقل وحدوده المعرفية، هكذا يلاحظ إبن خلدون أن التصوف ومعه سائر أشكال المعرفة فوق الطبيعة إنما يعبر عن محدودية العقل، فإبن خلدون يعتقد بالأمور الرّوحانية الغيبة. ويرى أن المنهج الذي يعتمد فيها هو غير المنهج الذي الذي يعتمد في دراسة التاريخ وعلم الإجتماع"[2].

---

[1] – ياسر علي خالد فراج ، **التصوف في فكر إبن خلدون** ، مجلة كلية أصول الدين والدعوة بأسيوط ، ج3 ، عدد 39 ، عام 2021 ، ص 2028

2 – ناجي حسين جودة ، **التصوف عند فلاسفة المغرب إبن خلدون أنموذجا** ، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع لبنان ، ط 01 ، عام 2006 ،ص 05

غير أن منهج التصوف يختلف عن مناهج " أهل السلف والكلام والفلسفة جميعا ؛ فأهل السنة يستمدون علمهم من الكتاب والسنة ، والمتكلمون يرون أن العلم تفقّه ، وأن العلم بالله يجيئ عن طريق النظر العقلي وإن لم يغفلوا النص الديني ، والفلاسفة يعتبرون العقل مصدر المعرفة اليقينية ،أما الصوفية فيرون أن العلم اليقيني إنما يجيئ عن طريق الحدس(أو الذوق أو الكشف أو العيان أو الوجدان الذي يقابل البرهان العقلي عند الفلاسفة والمتكلمين)"[1]

الأصل التاريخي لكلمة التصوف : تعتقد الكثرة من مؤرخي التصوّف أن الزهد مرحلة سابقة عليه ، والإسلام له مفهوم خاص للزهد ، فهو ليس" رهبانيا أو إنقطاعا عن الدنيا ، وإنما هو معنى يتحقق به الإنسان ، يجعله صاحب نظرة خاصة للحياة الدنيا ، يعمل فيها ويكدّ ، ولكنه لا يجعل لها سلطانا على قلبه ، ولا يدعها تصرفه عن طاعة ربّه"[2].

ومن الصّعب بمكان وضع فاصل زمني بين تياري الزّهد والتصوّف في الفكر الإسلامي . لقد إختلفت الآراء وتعدّدت التفسيرات للأصل التاريخي لكلمة التصوّف فهناك من رأى أنها ظهرت في العصر الجاهلي وعرفت في صدر الإسلام ، وهناك موقف آخر رأى أنها لم تعرف إلا في أواخر القرن الثاني الهجري . وإذا أردنا التعرّف على هذه الآراء والمواقف فإننا يمكن أن نحصرها في الآتي :

1- الإتجاه القائل أن مصطلح التصوف كان معروفا في العصر الجاهلي وصدر الإسلام . يقول السرّاج الطوسي ممثل هذا الإتجاه :" أما قول القائل بأن التصوّف إسم محدث أحدثه البغداديون فمحال لأن في وقت الحسن البصري -رحمه الله- كان يعرف هذا الإسم ، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم . وقد روى أنه قال " رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذ وقال معي أربع دوانق*

---

1 - توفيق الطويل ، **أسس الفلسفة** ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 3 ، د س ، ص451-452

2 - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، **مدخل إلى التصوف الإسلامي** ، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة ، ط3 ، د س ، ص59

* - دوانق : كلمة فارسية مفردها دانق وتعني سدس الدرهم .(أنظر ياسر علي خالد فراج ، التصوف في فكر إبن خلدون ص 2105)

فيكفيني ما معي"[1].

2- الإتجاه القائل برواج كلمة التصوف بعد القرن الثالث للهجرة . يقول إبن تيمية : " أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة ، إنما إشتهر التكلم به بعد ذلك "[2].

3- الإتجاه القائل أن كلمة التصوف لم تعرف إلا في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري . ويقول بهذا الرأي كلا من الإمام القشيري وإبن الجوزي والسهروردي .إلخ . يقول أبو القاسم القشيري :" إعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول لله صلى الله عليه وسلم لم يتّسم أفاضلهم بتسمية علم شوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا فضيلة فوقها فقيل لهم الصحابة...ثم ظهرت البدع ،وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق أدّعوا أن فيهم زهادا ، فإنفرد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة بإسم التصوّف وإشتهر هذا الإسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة"[3].

والملاحظ على إبن خلدون أنه لم يخالف آراء الإمام القشيري وإبن الجوزي والسهروردي فيما ذهبوا إليه ، وإعتبر هذا العلم من " العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى بالإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ...فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا إختص المقبلون على العبادة بإسم الصوفية، والمتصوفة "[4].

الأصل الإشتقاقي واللغوي : من خلال دراسة إبن خلدون للتصوف وتتبعه لمختلف التعريفات التي قدمها الفلاسفة لهذا العلم ، إستنتج أنها تميزت بما يلي : تعدّد تعريفات التصوّف وتنوّعها ، زيادة على أن كل صوفي كان يعرف التصوّف حسب المقام الذي كان يوجد فيه، لهذا أمكن القول أن كل هذه التعريفات لا تتفق مع المفهوم الصحيح للتصوف .

---

1 - ياسر علي خالد فراج ، **التصوف في فكر إبن خلدون** ،مرجع سابق ، ص 2105

2 - المرجع نفسه ، ص 2105- 2106

3 - ياسر علي خالد فراج ، **التصوف في فكر إبن خلدون** ، مرجع سابق ، ص2109

4 - المرجع نفسه ،ص2110 - 2111

وينتهي إلى النتيجة إلى أن " رعاية حسن الأدب مع الله في الأعمال الباطنة والظاهرة بالوقوف عند حدوده ، مقدما الإهتمام بفعل القلوب ، مراقبا خفاياها ، حريصا بذلك على النجاة . فهذا هو الرسم الذي يميز هذه الطريقة في نفسها ، ويعطي تفسيرها على ما كانت عليها عند المتأخرين من السلف والصدر الأول من المتصوفة "[1].

حاول الباحثون الأقدمون والمعاصرون الوصول إلى الأصل التاريخي لظهور كلمة التصوّف، غير أنهم لم يتّفقوا في تحديد أصلها فإختلفت آراؤهم وتنوّعت إتجاهاتهم ، فهناك من رأى أنها مشتقة من لباس الصّوف وهناك من قال أنها مشتقة من الصفاء وهناك من قال أنها مأخوذة من الصف الأول ، وجماعة أخرى تعود كثيرا إلى الوراء وتقول أنها مشتقة من الكلمة اليونانية {صوفيا} وهناك من ينفي نفيا قاطعا الإشتقاق وقال أنها مجرد لقب .

ويؤكد إبن خلدون أن المتصوفة يفضلون لبس الصوف زهدا وتقشّفا منهم فقط ، ولا يمكن إعتباره صفة تميّزهم عن غيرهم من الناس . وفي هذا يقول : " والقوم لم يختصوا بلباس دون لباس وإنما فعل ذلك من تشبّه بهم ، وتخيّل من لباسهم الصوف في بعض الأوقات تقلّلا وزهدا ، إذ كانوا يؤثرون التحلي بالفقر في كل حال شأن من لم بجعل الدّنيا أكبر همّه"[2].

كما ينفي إبن خلدون أن يكون أهل الصفة قد إختصوا بطريقة معينة في العبادة ، وكل ما في الأمر أنهم كانوا جماعة معتكفين بالمسجد تزهّدوا في الدنيا لا أكثر ولا أقل.

ويخلص إين خلدون إلى أن كلمة التصوف مشتقة من الصوف ، فقيل متصوف وصوفي والجماعة متصوفون . وفي هذا يذكر إبن خلدون " قلت والأظهر إن قيل بالإشتقاق إنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه ، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف "[3].

إبن خلدون وعلاقته بالمتصوفة : لقد ترأس إبن خلدون كما ذكر في ترجمة حياته مشيخة { نظارة } وهي مشيخة صوفية ، كما كان لحادثة قتل أخيه وغرق جميع أفراد عائلته أثناء لحاقها به من المغرب إلى مصر الأثر البالغ على شخصه ولجوئه إلى طريقة

---

1 - ناجي حسين جودة ، **التصوف عند فلاسفة المغرب إبن خلدون أنموذجا** ، مرجع سابق ،ص165

2 - إبن خلدون ، **المقدمة** ، المطبعة الأدبية ، بيروت ،،ص 467

3 – المرجع نفسه ، ص2118

التصوف. قال إبن خلدون في فاجعة العائلة وتوجهه إلى الزّهد الذي يعتبر مقدمة التصوّف " وصلوا من المغرب في السّفين فأصابها قاصف من الريح فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ...عاكفا على تدريس علم ، أو قراءة كتاب ، أو إعمال قلم في تدوين أو تأليف ، مؤملا من الله قطع سبابة العمر في العبادة ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته"[1]. وما يدل على هذا التحوّل الجذري في حياة إبن خلدون وعلى شعوره بالتأزّم النّفسي والرّوحي هو آداءه لفريضة الحج بعد وفاة أخيه بتسعة أعوام.

يميّز إبن خلدون بين طريقتين من التصوّف التصوّف المعتدل والتصوّف الفلسفي { تصوف المتأخّرين المتطرّفين} " الأولى، وهي طريقة السنة، طريقة سلفهم الجارية على الكتاب والسنة ، والإقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين والطريفة الثانية ، وهي مشوبة بالبدع وهي طريقة قوم من المتأخرين...ومن هؤلاء المتصوفة إبن عربي وإبن سبعين وأتباعهم ممن سلك سبيلهم ودان بنحلتهم؛ ولهم تواليف كثيرة مشحونة بصريح الكفر، ومستهجن البدع"[2].

هذا يعني حسب فيلسوفنا أن هناك نمطين من التصوّف ؛ الصّالح الخالي من النظريات الفلسفية وهو تصوف المحاسبي والقشيري وأبي حامد الغزالي ، والتصوّف الفلسفي الذي يطرح نظريات الحلول والإتحاد ووحدة الوجود والوحدة المطلقة .

إذن إن إبن خلدون لم ينكر التصوّف ولم يؤيّده ، وإنما عمل على توضيح ما هو خطر فيه وما هو أمين على جوهر العقيدة الإسلامية ، وبالتالي فإنه قد دافع على التصوف الأمين وعلى أصحابه وكل من سار في فلكه وهو يقر بما يقرّونه ما دام منحصرا في مجال الوجدان أو الإتصاف . أما القسم الثاني الذي ينكره ويفضح تجاوزاته التي تتولد عن المبالغة في إخضاع التصوف للعقل { عقلنة التصوف } على الرغم من " أنه تجربة لا تقبل بطبيعتها أن تتعقلن...لأنها من جنس الوقائع التي لا تدرك بالعقل ولا بالحس ، ولا تقبل أن يقام عليها برهان أو حتى يعبّر عنها باللغة العادية المتعارفة...إذن إن(التصوّف الفلسفي ليس تصوّفا بل هو صناعة عقلية أي فلسفة "[3]. فالزّهد حسب إين خلدون إسلامي في أسسه وأصوله ،

---

1 -ناجي حسين جودة ، **التصوف عند فلاسفة المغرب إبن خلدون أنموذجا** ، مرجع سابق ،ص 157-158

2 – المرجع نفسه ، ص 174

3 - المرجع نفسه ، ص175

أما التصوّف الفلسفي فهو نزعة وحزمة من الآراء والأفكار والمعتقدات الأجنبية الغريبة على الإسلام .

من هنا نفهم الموقف الواضح لإبن خلدون من التصوف الفلسفي ، وميله " الأشعري" الظاهر إلى التصوّف السنّي القائم على الكتاب والسنة ، وهذا هو السبب الكافي الذي جعله يقسم التصوّف إلى قسمين مختلفين : التصوّف السنّي المعتدل في مقابل التصوّف المغالي.

وعلى إثر هذه الإنحرافات عمد إبن خلدون إلى نقد بعض زعماء الفكر الصوفي مركزا على قولهم بالحلول*، والإتحاد*، والوحدة* وإعتبر هذا الأمر تطرفا منهم في العقيدة . وبيّن في نفس الوقت أن هؤلاء المتصوفة المتأخرين لا يفرقون بين منهج ذوق عرفاني ، ومنهج نظري فلسفي ، وأنهم إستمدوا فكرة الحلول والوحدة من اليونانيين القدماء وأيضا من المسيحيين الذين يؤمنون بإتحاد الله بالموجودات من ناحية الوجود والصفات . ولهذا يعتبره إبن خلدون هذا الإتحاد " نشازا واضح المعالم بإعتبار أن الإتحاد هو إتحاد القديم { الله } بالمحدث { المخلوق } وهذا ما لايستقيم منطقيا في تصوره "[1] .

تأسيسا على هذا ، يؤكد إبن خلدون على أن هذه الفكرة " تتنافى مع العقيدة الإسلامية التي تقرر بوضوح تام أن هناك موجودين ، الله ، والعالم ، متباينين في كل شيء ن وأيضا منفصلين تمام الإنفصال وأن العالم وجوده مرهون بإرادة الله ومتوقف عليه"[2]. وعلى إثر هذا إصطفّ إبن خلدون إلى جانب جمهور العلماء المسلمين الرّافضين لنظرية التصوف الخاطئة القائلة بالحلول والإتحاد والوحدة .

مما سبق نقول أن التصوّف المعتدل المبني على الزّهد ومجاهدة النفس يكون مقبولا لدى إبن خلدون أكثر من رأي المتصوفة الفلاسفة المتأخرين من جماعة الصوفية.

---

* – **الحلول** : هو أن يكون الشيئ حاصلا في الشيء ومختصا به ، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر تحقيقا أو تقديرا .

*– **الإتحاد** : إتحاد شيئ مع شيئ آخر بنحو يصبح الإثنان شيئ واحد .

* – **وحدة الوجود** : هي القول بأن وجود الكائنات عين وجود الله تعالى ، ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البتة (أنظر جميل صليبا ، **المعجم الفلسفي** ، دار الكتاب اللبناني ، عام 1982 ، ص 549

1 - ياسر علي خالد فراج ، **التصوف في فكر إبن خلدون** ، مرجع سابق ،ص2163

2 - المرجع نفسه ، ص2170